باب الإمالة

اختلاف الحجازيين والتميميين

ومن تابعهم في ظاهرة الإمالة

فما الإمالة؟

وأبسط ما قيل في ذلك: هي أن تنحوَ بالفتحة ناحية الكسرة فتميل الألف التي بعدها نحو الياء[١]، وتسمى كسرًا وبطحًا واضجاعًا وإشباعًا وألفًا معوجًا وليًا[٢].

ولها أسباب منها: كسرة تكون قبل الألف أو بعدها، وياء قبلها، وانقلاب الألف عن الياء، وتشبيه ألف بالألف المنقلبة، وكسرة تعرض في بعض الأحوال والإمالة للإمالة[٣].

ولها موانع مبسوطة في كتب النحو[٤]..

وتختلف الإمالة عن الفتح، إذ يعني الفتح: حركة من الحركات تقابل الكسر أو الضم تنتج عن فتح الممر الهوائي عند الحلق والشفاه[٥]، وقد سموه فتحًا وتفخيمًا ونصبًا[٦].

لذلك عدت الإمالة انحرافًا عن القصد وعدولاً عن الإقبال عليه. ويبدو أن الانسجام الصوتي بين الحركات كان وراء الإمالة والداعي إليها فالفتح كان يتطلب مجهودًا عضليًا أكثر من الإمالة إذ الانتقال من الفتح إلى الكسر في «مارد» أو بالعكس كما في «كتاب» كان يتطلب جهدًا عضليًا لا يتطلبه الانسجام الصوتي بين أصوات اللين لو انسجمت مع بعضها.

---

(١) النشر ٢: ٣٠، حاشية الخضري ٢: ١٧٩، أوضح المسالك ٦٧٩.

(٢) النشر ٢: ٣٠، الكتاب ٢: ٢٦٣، الإمالة في القراءات واللهجات العربية ٣٦.

(٣) الهمع ٢: ٢٠٠، النشر ٢: ٣٠، اللباب في علل البناء والإعراب: مصورة برقم ٩٨٩/ نحو.

(٤) الهمع ٢: ٢٠٢ وما بعدها، شرح التصريح ٢: ٣٤٩ وما بعدها.

(٥) الإمالة في القراءات واللهجات العربية ١٤.

(٦) الكتاب ٢: ٢٦٣، شرح المفصل ٤: ٥، شرح اللهمع ٣٠٠.

obeikandl.com

لذا رأينا ابن جني يلخص الغاية من وراء ذلك العمل بأنه: لضرب من تجانس الصوت[١]، وتقريب الأصوات بعضها من بعض.

ولا ريب أن الإمالة كانت بوحي من هذا التشاكل الصوتي، وربما الإدغام وإبدال الحروف والحركات بعضها من بعض أيضًا.

والملاحظ أن القبائل العربية لم تسلك -فيما وصل إلينا عنهم من لهجات حول كسر الحرف الذي توفرت فيه شروط الإمالة ونصبه- طريقًا واحدًا.

لكن الثابت عند علماء العربية والقراءات أن القرآن قد نزل بلغة العرب وأميلت بعض حروفه في قراءات من لم تطاوعهم ألسنتهم على إقامته من العرب[٢]، وذلك ضرب من التيسير عليهم، وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك.

ويبدو أن الإمالة كانت مذهبًا شائعًا في نطق بعض العرب، وهم تميم وأسد وقيس وبكر بن وائل وعامة أهل نجد وأهل اليمن وبعض قبائل بوادي الحجاز، ومن جاورهم[٣].

نقل سيبويه: أنه بلغه عن أبي إسحق أنه سمع كثيّر عزة يقول: «صار بمكان كذا وكذا[٤]» أى بإمالة الألف في صار، وهو من خزاعة من ربيعة.

وقال هدبة بن خشرم:

عَسَى اللهُ يُغْنِي عَنْ بِلاَدِ ابْنِ قَادِرٍ بِمُنْهَمِرٍ جُونِ الرِّبَابِ سَكُوب[*]

وهدبة هذا من قضاعة[٥].

---

(١) سر الصناعة ١: ٥٨.

(٢) الإمالة في القراءات واللهجات العربية ٦١.

(٣) الكتاب ٢: ٢٦١، الهمع ٢: ٢٠٠، النشر ٢: ٣٠.

(٤) الكتاب ٢: ٢٦١.

(٥) الإمالة في القراءات واللهجات العربية ٨٩.

(*) البيت من شواهد سيبويه ٢: ٢٦١، وقد نسب إلى هدبة بن الخشرم.

والمنهمر: السائل. والجون: الأسود، وقيل: الأبيض فهو من التضاد والرباب: ما تدلى من السحاب دون سحاب فوقه، والسكوب: من السكب وهو الصب... والشاهد في ابن قادر: حيث روي ممالا ، وقد أوضح سيبويه العلة في ذلك ٢: ٢٦١، وهو استعمال لقوم ترضى عربيتهم -شرح المفصل ٩: ٦٢.

وبدراسة ظواهر الإمالة بأنواعها -والتعرف على أسبابها، وجد النحاة أنها تتلخص في ضوابط:

١- إذا بلغت الأسماء أربعة أحرف أو جاوزتها من بنات الواو أو الياء وكان آخرها ألفًا سواء أكانت للتأنيث أم غيرها، فالإمالة -إذن- مستتبة فيها ولا عبرة بالأصل حينئذ فإن ذوات الواو يصرن إلى الياء إذا كانت الواو رابعة فما فوق في تثنية كما في: ملهى، وملهيان، أو صياغتها على «فعلت» كأغزيت من الغزو فإنها تمال أبدًا لأنها صارت عندهم بمنزلة ألف رمى، ونحوها، فيقال فيها: حبلى، ومغزى، وملهى في الجميع.

إلا أن ناسًا كثيرًا من بني تميم وغيرهم لا يميلون الألف في أمثال ذلك بل يفتحونها يقولون: حبلى، ومغزى، وملهى[(١)].

٢- وافق بعض الحجازيين بعض بني تميم ومن نحا نحوهم في إمالة كل ما كان من بنات الواو أو الياء مما هو فيه عين الكلمة نحو: مات وطاب وهاب وصار وخاب إذا كسر أول «فَعَلْتُ» نحوا به نحو الكسرة كما فعلوا ذلك فيما كانت ألفه في موضع الياء[(٢)].

٣- عامة أهل الحجاز وأهل العالية وأهل نجد وقيس وتميم وأسد لا يميلون ما كان واوي العين كخاف وطاف وقال وأجال، مما يؤول منها إلى «فِلْتُ أو فُلْتُ» ولا يميلون إلا ذوات الياء من هذه الأفعال[(٣)].

٤- كثير من العرب وأهل الحجاز إنما يميلون إذا سبقت الألف بكسرة ظاهرة أو مقدرة، فإن قدرت هذه الكسرة فأكثر العرب وأهل الحجاز لا يميلون[(٤)].

إلا أن سيبويه قد نقل أن بعض من يوثق بعربيته يميلون الألف إذا سبقت بياء، وإنما فعلوا هذه لأنها صارت بمنزلة الألف التي تكون قبلها فيقولون: كيّال، وريّان، وبياع، كما صنعوا ذلك في نحو: سراج وجمال[(٥)].

---

(١) الكتاب ٢: ٢٦٠، شرح اللمع ٣٠٤.
(٢) الكتاب ٢: ٢٦١، الهمع ٢: ٢٠١.
(٣) نفس المرجعين والأجزاء والصفحات، شرح اللمع ٣٠٦، شرح المفصل ٩: ٥٤.
(٤) الهمع ٢: ٢٠١.
(٥) الكتاب ٢: ٢٦٠.

٥- يشترط في إمالة الألف أن تسبق بكسرة أو بياء سواء أكانت متصلة بها أو منفصلة عنها بحرف نحو: بنا، وبها، أو بحرفين نحو: إنّا إلى الله راجعون، وهو منّا، ورأيت عِدّا، وإنّا لمختلفون، ويريد أن يضربها، وهي لغة لبني تميم وقوم من أسد وقيس ممن ترضى عربيته[١].

ويكاد ينحصر اختلاف لغات القبائل العربية في أمر هذه الإمالة أو عدمها -حسب ما رأينا- بين لغات بعض قبائل الحجاز وبين تميم وقيس وأسد وأهل اليمن وبعض الحجازيين أنفسهم، على أنني أرى أنها قد كانت مذهبًا كثير الشيوع في منطق طائفة من قبائل العرب -كما قدمنا- وإن تفاوتت أعداد تلك القبائل قلة أو كثرة، إلا أنني أؤكد -مع ذلك- استقلالها بجماعات معينة من القبائل العربية لأسباب بيئية جغرافية وميل من ناحيتهم للسرعة في النطق والاقتصاد في الجهد العضلي قدر الإمكان، إذ الانتقال من الفتح إلى الكسر أو الضم والعكس يتطلب من صاحبه أن ينفق جهدًا عضليًا هو في غنى عنه لو جانس بين الأصوات أو شاكل بين حركاتها، وهو يتفق وطبيعة البيئة البدوية التي تميل إلى السرعة في النطق، وهذا بخلاف أهل الفتح من الحجازيين، فطبيعة بيئتهم الحضرية تدفعهم إلى التأني في القول، وإعطاء كل صوت حقه من الأداء، ولاشك في أن اختلاف القراء في أدائهم من حيث إمالة بعض الأصوات أو فتحها إنما يمثل اختلاف لغات القبائل في هذا الشأن.

وبعض المحدثين يؤكدون خلو قراءة بعض قراء البيئة الحجازية من الإمالة، إذ يقول بعضهم: ونحن إذا ذكرنا قارئي الحرمين «ابن كثير المكي ونافع بن عبد الرحمن بن نعيم المدني» فإنما نذكر أصول القراءة الحجازية بجميع أطرافها، وقد ثبت أن كلا هذين القارئين ومن تلقنوا عنهما أصول قراءتهما كانوا يفتحون مما يؤكد أن قراءتهم إنما كانت صدى للهجة بيئتهم[٢].

وهذا غير مسلم به على إطلاقه، إلا إذا قصد بالإمالة: تلك الإمالة الكبيرة وإلا فقد نقل بعض الأئمة أن ورشا قد أمال من طريق الأزرق وهي إمالة التقليل في

(١) الكتاب ٢: ٢٦٢.

(٢) اللهجات العربية في التراث ٢١٣ وما بعدها.

جميع رؤوس الآى سواء كانت من ذوات الواو نحو: والضحى، وسجى، والقوى. أو من ذوات الياء نحو: هدى، والهوى، ويغشى[1].

على أن الإمالة كانت مذهبًا مألوفًا في قراءات أهل العراق عامة والكوفيين بصفة خاصة حيث أمال حمزة والكسائي وخلف كل ألف منقلبة عن ياء أنّى وقعت في القرآن سواء كانت في اسم أو فعل[2].

وأمال أبو عمرو البصري كل ما كانت فيه راء بعدها ألف ممالة بأي وزن كان أو رسمت في المصحف ياء[3].

واختص الكسائي بإمالة ما قبل هاء التأنيث التي تكون في الوصل تاء آخر الاسم فقيل له في ذلك فقال: هذا طباع العربية.

قال الحافظ أبو عمرو الداني: يعني بذلك أن الإمالة لغة أهل الكوفة وهي باقية فيهم إلى الآن وهم بقية أبناء العرب يقولون: أخذته أخذة، وضربته ضربة. قال: وحكى نحو ذلك عنهم الأخفش سعيد بن مسعدة الأخفش[4].

لهذا نرى أن الإمالة قد أثرت في أداء قراء أهل العراق ولاسيما أهل الكوفة نتيجة التأثر بلهجات من جنحوا إلى الإمالة من قبائل بوادي نجد والحجاز.

وفي كلام الكسائي السابق ما يشير إلى أن الإمالة التي كانت في لغة أهل الكوفة إنما أتتهم -في أغلب الاحتمالات- من قبل أنهم بقايا أبناء القبائل النازحة إليها من أواسط الجزيرة العربية وشرقيها حيث كانت مهبطًا لعدد كبير من قبائل أسد وتميم وبكر بن وائل ومن إليهم من بطون وفروع، وهم ممن أثر عنهم الإمالة، ولا شك أن الكوفة قد تأثرت بقبائل وسط الجزيرة العربية وشرقيها إضافة إلى أنها كانت على اتصال دائم بهم في باديتهم، مما يؤكد أن الإمالة كانت أصلاً فيهم.

****

(١) النشر ١: ٤٨.
(٢) نفسه ١: ٣٥.
(٣) نفسه ١: ٤٠.
(٤) النشر ٢: ٨٢.